بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبين وعلى آله وصحبه. ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين...

وهذه أحاديث عن سورة الكهف..

ولعل أول ما يسبق إلى الذهن عند ذكر هذه السورة. ما فيها من أنباء الغيب والمعجزات:

- فتية من القرون السابقة، ضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددا. ناموا دون أن يقصدوا النوم الطويل، واستيقظوا لا يدرون إن كان النوم يوما أو بعض يوم.
- قائد حاكم طاف المشرق والمغرب شارك في إقامة العدل وفى تصوير الفكرة عملاً ملموسًا، وحمى قوما بعرق الجباة وجهد السواعد، ودقة التخطيط وأقام بينهم و بين المفسدين سدا يدعمه حديد ونحاس.
- وقصة بين موسى عليه السلام وهو نبى من أولى العزم وبين رجل صالح آتاه الله من لدنه علما ظهر من وراء ستر الغيب وكانت له مع موسى صحبة من ثلاث مراحل ثم توارى وراء ستر الغيب لا نعرف يقينا من أين جاء ولا إلى أين ذهب وما يعلم جنود ربك إلا هو.
- وقصة صاحب الجنتين، وقد استطال بماله وزرعه وثماره، على صاحبه المؤمن وتسير القصة ويعلو الإيمان بصاحبه، ويعصف الجحود والغرور بالجنتين، فأصبح ثمرها حصيدا كأن لم تغن بالأمس.

هذه هى المعالم الرئيسية الأربعة في السورة، التى كثر الحديث عما فيها من أنباء الغيب والإعجاز.

ولكن جوانب أخرى غير أحداث السورة تستوقف النظر، هى العبر من القصص، ومنهج العرض التاريخى، وتكامل القصص الأربع، دون أخذها فرادى. وتكامل مشاهد كل منها دون اقتطاع مشهد عن السياق العام، ثم وضع المشاهد

والقصص جميعا في نسق واحد يضم مدخل السورة وخواتيمها، والروابط بين مراحلها تمهيدا وتعقيبا بحيث تبدو السورة في وحدتها المتكاملة داخليًا، ومع السياق التاريخى والقرآنى للعهد المكى ثم مع الأهداف الدائمة والباقية، التى تنير لنا السبيل منهجيًا وعمليًا في حياتنا. وبهذا نجمع في الدراسة بين النظريتين الداخلية والخارجية. ولما كان القرآن الكريم مصدر إلهام دائم للمسلمين على امتداد الزمان والمكان وكان لكل عصر مشكلاته الكبرى التى تقابله مع الاشتراك في قضايا إنسانية مستمرة كان علينا أن نقرأ القرآن: أولاً على مستوى الفهم لألفاظه ومعانيه دون أن نحمل الآيات فوق ما تحتمل مستهدين في فهم القرآن بالقرآن ذاته وبالسنة النبوية وما جاء عن سلفنا الصالحين، ثم نقرؤه في ضوء مشكلاتنا التى نحياها نلتمس عنده الهدى فيما نستقبل من مسئوليات الحياة.

وإذا كان الغالب في القراءة الأولى عنصر الثبات والاستمرار، وهذا هو التفسير المأثور – فأن الغالب والمقصود في القراءة الثابتة هو عنصر التغير وهذا هو التفسير المعقول. أى أن نلتمس من القرآن النور فيما نواجه من مشكلات الحياة،وهى تجمع بين الاستمرار والتغير – أى بين العقل والنقل – هذا بعد أن جمعت بين النظرتين الداخلية والخارجية وهذه العناصر الأربعة أساسية في أى دراسة تاريخية.

ولننظر الآن إلى السورة في سياقها التاريخى:

سورة الكهف مكية وهى الثامنة والستون في ترتيب النزول: قبلها الغاشية وبعدها النحل.

وقد ذكر محمد بن اسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة ابن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد، وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا قال، فقالوا لهما: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل والإ فرجل متقول فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما

كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد ! أخبرنا، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ أخبركم غدا عما ما سألتم ولم يستثن [أى لم يقل إن شاء الله] فانصرفوا عنه. ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له وحيًا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة،قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من خبر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل. ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥).

ندع الآن أمر الروح، وتفسير قوله تعالى: قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى والمقصود من كلمة "أمر" هنا ثم التعقيب عليها بقوله تعالى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

ونركز القول على تحدى قريش الرسول عليه الصلاة والسلام والاستعانة عليه بأحبار اليهود في المدينة. ولقد كانت لهم بعد هذا مواقف ومواقف مع الإسلام: رسالةً ورسولاً ومجتمعًا.

كان التحدى في الأسئلة الثلاثة عمليًا، كان تحديًا في المعرفة وكان اليهود على يقين أن علم هذه الاسئلة الثلاثة بعيد عن دائرة النبى عليه الصلاة والسلام إلا أن يأتيه خبر السماء.

فى هذا التحدى جانب إيجابى قوى هو يقين اليهود أن أهل مكة مسلمهم وغير مسلمهم بعيدون عن هذا العلم ويقين قريش أن هذه معرفة جديدة عليهم ليست من أساطير الأقدمين وملاحم التاريخ التى وصلت إليهم أطرافها وبهذا هى جديدة على الرسول بيقين. و يقودنا هذا إلى صورة تاريخية للعهد المكى أكثر تفصيلا.

ففي أي مرحلة كان هذا التحدي؟ ما علاقته بجوانب التحدى الأخرى؟

نستطيع أن نقسم العهد المكى إلى مراحل متميزة متصلة:

- **المرحلة الأولى**: من البعثة النبوية إلى السنة الثالثة، وهى مرحلة الإسرار بالدعوة
- **المرحلة الثانية**: إعلان الدعوة امتثالاً لأمر الله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) وما تلاها من محاولات فتنة المسلمين عن دينهم، وعدوان أقوياء كل قبيلة على من فيها من المستضعفين الذين أسلموا، وجهود أغنياء المسلمين كأبى بكر في شراء هؤلاء وإعتاقهم لله تعالى.. حتى أذن الرسول ﷺ للقادرين من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة قائلا: لو خرجتم إلى أرض الحبشة،فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق. حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه. وكان هذا في العام الخامس للبعثة النبوية وكان من المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت المصطفى ﷺ والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف و جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم و أقامو بالحبشة عشر سنين.
- **المرحلة الثالثة**: مرحلة الفتنة العامة التى استمرت من العام السابع إلى العاشر وهى مرحلة الحصار الاقتصادى والاجتماعى الذى فرضته قريش على المسلمين وألجأتهم إلى شعب بنى هاشم.
- **المرحلة الرابعة**: ومطلعها انتهاء الحصار الاقتصادى وموت أبى طالب وخديجة رضى الله عنهما وخروج الرسول ﷺ إلى الطائف وما لقى فيها من الأذى ثم الإسراء والمعراج. وكان إيذانا بفتح أبواب المستقبل.. فآمن أوائل الأنصار في موسم الحج عندما عرض عليهم الرسول الإسلام.. واستمرت هذه المرحلة الى الهجرة النبوية في العام الثالث عشر للبعثة النبوية..

من الناحية التاريخية، المراحل الأربع متصلة، والمعاناة مستمرة وإن تميزت كل مرحلة بضيوف من المحنة.

وما وجدت قريش وسيلة من وسائل الايذاء والامتحان إلا سلكتها مع المسلمين: الأذى البدنى. المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية. التشكيك في الرسالة والرسول، ورميه بالجنون والسحر وتحديه أن يأتى بمعلومات أو يأتى

بمعجزات، ثم أخيرا تدبير قتله وكانت نجاته بالهجرة من مكة إلى المدينة واتخاذها قاعدة للإسلام ونشر دعوته في العالمين.

وواضح من هذا التقسم الرباعى أن تكون قصة التحدى في المرحلة الثانية من هذه المراحل الأربع وأقرب إلى خواتيمها من بداياتها.

٢ – ترتيب سورة الكهف في القرآن

من الموضوعات التى عنى بها المفسرون: ترتيب سورالقرآن وترتيب الآيات في السورة الواحدة.

وبين يدى عند إعداد هذا الحديث كتاب (تناسق الدرر في تناسب السور) "للإمام السيوطى المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة هجرية. ذلك العالم الجليل الذى إذا وزعت كتبه على سنوات عمره وأيامها، لرأينا أمامنا صورة من روائع العكوف على العلم والتفرغ له وتوفيق الله.. عاش السيوطى اثنين وستين عاما وتبلغ مؤلفاته ثلاثمائة ذكرها في مقدمة كتابه "حسن المحاضرة ".. امتدت إلى التفسير والحديث والقراءات و الفقه والتراجم و النحو والآداب.. فإذا أضيف إلى ذلك ما كتبه بعد "حسن المحاضرة " ارتفعت كتبه إلى أكثر من أربعمائة..٠

أقول هذه الكلمة عن السيوطى، ونحب سبيل سورة الكهف لنرى كم أحب آباؤنا كتاب الله، وعكفوا عليه، وأناروا به القلوب والعقول والحياة. وكانوا صورة حية لحديث المصطفى عليه الصلاة والسلام الذى يرويه الترمذى عن ابن عباس قال:

قال رجل: يا رسول الله٠أى الأعمال أحب الى الله قال الحال المرتحل. قال: وما الحال المرتحل؟ قال الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل[١].

نعود إلى كتاب السيوطى وقد نشره وحققه عبد القادر عطا بعنوان "أسرار ترتيب القرآن"[٢]، لنقرأ فيه ما قاله السيوطى عند ترتيب هذه السورة في المصحف ونحن نعرف أنها الثامنة عشرة وهى بعد سورة الإسراء، وتليها سورة مريم.

---

(١) جامع الأصول لابن الأثير ٩: ٣٣٧ حديث رقم ٦٢٧٦.

(٢) طبعة دار الأعتصام ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.